خمسة في سيارة

٤

ورأى صاحبنا المصري قبل ان يغادر جنيف ان يصلح ما افسدهُ نظام الحرب وما تلاها في امر جواز سفره بان « يؤشر » عليهِ من السلطة السويسرية لتسمح لهُ بالاقامة في ديارهم لعلمهِ انهُ سيعود الى سويسرا عما قريب

فقيل لهُ ان الامر منوط برجال الضبط في المحافظة فذهب اليها . وهي بناء قديم كبير يدعونهُ « فندق المدينة » Hotel de Ville ولا يدري احد لماذا يدعو الاوربيون محافظاتهم بهذا الاسم الاَّ اذا كانوا يقصدون الضحك من ذقون الاميركيين

فقد حدَّث محدث أن اميركيًّا قدم جنيف ومرَّ امام هذا البناء وكان جائعاً فرأى الاسم على الباب قال هذا فندق فلا دخلهُ واتذوق طعام جنيف . ومرَّ بالابواب باباً باباً الى ان التقى بحارس فسألهُ عن موضع المطعم في هذا الفندق فضحك الحارس وارسلهُ الى حيث يأكل

على ان صاحبنا المصري لم يكن على مثل هذه السذاجة في هذه الامور فدخل سائلاً عن قلم « الباسبورت » فأتى رئيساً من رؤسائهم فشرح لهُ الامر قال :

جاءنا احمل جوازاً ليخولني حق الاقامة في فرنسا وايطاليا والبلجيك واود ان اقيم بضعة ايام في سويسرا فهل لكم ان تأذنوا في ذلك بالكتابة على هذا الجواز

فنظر اليهِ الرئيس وقال ولكنك حالٌّ في سويسرا فما حاجتك الى « التأشير » . فقال اظنها اصولاً مرعية . فاضطرب الموظف وقال تعال الى الرئيس العالي فذهبا اليهِ واعاد صاحبنا حكايتهُ . قال الرئيس العالي الشأن ولكنك في جنيف من اعمال سويسرا فما حاجتك « إلى التأشير » — قال اني اخشى في ذهابي وايابي ان اسأل عن الجواز فيظهر فيهِ خلوهُ من التصريح اللازم فاقع في محذور . قال كان يجب عليك ان تفعل هذا في بلدك لدى القنصل السويسري او في فرنسا لدى قنصلنا فيها . فاجاب المصري اني لم افعل . وما هؤلاء القناصل في الديار الاجنبية الاَّ ممثلو السلطة السويسرية هنا . واولى بالاصيل ان يفعل ما يستطيعهُ الوكيل — فاضطرب الرجل وقال هيا بنا الى الرئيس الاعلى فذهب يصحبهُ الرئيسان الى رئيسهم واعاد الحكاية والشرح . فبعد لأيٍ ، قال

الرئيس الاعلى اني اصرح لك بالاقامة ثلاثة شهور . ولكنها لا تغنيك شيئاً فانك ستعود من هنا الى فرنسا تبطل مفعول التصريح ولا بدَّ لك من تصريح آخر حين رجوعك الينا

فادرك صاحبنا انهُ في وسط اهلهُ على جانب عظيم من الغباوة وعلم موضع النفلة من هذا الرئيس الاعلى قال ولكني لست براجع الى فرنسا بل باق في جنيف ومنها الى لوزان ومنها الى فيق وكلها سويسرية فاجاب الرجل وما تفعل بثيابك وصناديقك في فرنسا قال أرسل من يبعث بها اليَّ الى هنا . قال قضي الامر وختم بالخاتم الجمهوري مصرحاً بالاقامة وتقاضى الرسم فخرج صاحبنا المصري يقول

والصدق ان النائك تحت الطلب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

ولحق باصحابه في السيارة يقص عليهم الحكاية واجتازوا الحدود وقدر لهم ان يعودوا مراراً وتكراراً الى سويسرا فما بطل مفعول التصريح لا عند رجال الشرطة السويسريين ولا عند زملائهم الفرنساويين سكان سافوي العليا

وكان كلما مرَّ في بلد سويسري تذكر الامر فقال لهُ الفرنساوي مرةً الا تمم المثل السائر . قال وما هو . قال انك اذا قرنت سويسرياً الى سافوياردي اصبحت ولديك حيوانان . على ان في المثل — مثل سائر الامثال — شيئاً من المبالغة

***

واستوى الانكليزي في مقعده ونزع غليونهُ من فيه وقال مخاطباً الرفيق الفرنساوي تسألني اذا كنت أؤمن بجمعية الامم ؟ « نحن خلقنا جمعية الامم »

الفرنساوي — صحيح انما ليس من المحتم على من يخلق شيئاً او يشير بشيء ان يؤمن بهِ

الانكليزي — ولكنك لا تنكر ان في شعوب الارض ميلاً شديداً الى تجنب الحروب واسبابها وهذه الجمعية وليدة ذلك الشعور فهي ضمير الناس الناطق وانها ان اعوزتها القوة الآن فلا بدَّ ان تحصل عليها بعد حين

الفرنساوي — عجيب امركم ايها الكسمونيّون وعجيب ضمير جنسكم . افكلما اتفقت البادىء السلمية مع منفعتكم انقلبتم مبشرين ورسلاً للسيد المسيح فاذا تعارضت شيئاً مع مجرى التجارة ضربتم بها عرض الحائط

اني معجب بنصركم ومحبوبيتهِ كائن عما يتهمونكم بهِ من الرياء فانكم اكثر صراحة

من معظم شعوب الارض ولكنكم انانيون بالفطرة شديدو الثقة بعلمكم وبتاريخكم وبقوتكم فهل تضحون بالحيوية والنشاط الانكليزي حبًّا في محكمة دولية

الانكليزي — انا انادي بالحيوية المتغلبة مؤمن بها ولكني انظر بعين الايمان الى زمن يحكم الناس فيه بينهم هيئة مثل عصبة الامم فراراً من الاحتكام الى السيف . ولماذا تفصل المحاكم بين الافراد ولا تفصل محاكم مثلها بين الجماعات

المصري — ان المحاكم تفصل بين الافراد لان في نهاية احكامها امرًا يحتم على رجال القوة من الشرطة او الجيش ان ينفذوا الحكم بالقوة اذا لم يذعن المحكوم عليه دع هذا النصّ جانباً تعلم قيمة الاحكام في النزاع بين الناس

فهل لديك قوة تنفذ احكام جمعية الامم . ان قوام هذه الجمعية رأي الشعوب العام او قل ضمير الامم الحيّ ولكن ما قيمة هذا الرأي وما هو هذا الضمير . ارأيت يوماً شعباً افرنسيًّا كان رأيهُ او ضميره على حكومته مع شعب آخر . انا نحن الامم الصغيرة نكون اسعد الناس حالاً ان صار مبدأ جمعية الامم ولكننا اكثر الناس كفراً به الآن

الفرنساوي — انا اقول لكم ما هي هذه جمعية الامم

ارأيت مسافراً يركب القطار من باريز الى الاستانة ؟ انهُ يعلم طول الرحلة ومشقتها ومتاعبها في الليل والنهار فلا يسليه في طريقه الاّ هذه المحطات الموزعة على الخط . فهذه محطة ينزل اليها فيأكل وتلك اخرى يتمطى فيها ويستريح وهكذا حتى يصل الى النهاية

كذلك جمعية الامم هي محطة من محطات كثيرة وضعها فريق من الجنس البشري في رحلته في سبيل التطلب والاستمرار والمتاجرة

وهذه المحطات تراها يوماً معاهدة بين ملوك ويوماً محكمة عدل دولية ويوماً جمعية امم . والغرض منها كل الغرض الراحة بعد اعياء واعداد النفس الى سفر اشق واطول

فانهُ طبيعي ان يملّ شعبٌ الحرب بعد ان اكتوى بنارها واضاع الحرث والنسل في اضرامها فيحنّ الى ضجعة تنسيهِ اياها فاذا ما اضطجع واستعاد قوته اعاد الكرة . سنة الطبيعة في مخلوقاتها

انتم — ونحن مثلكم — قوم اضعتم تجارتكم في الحرب الماضية او كدتم فلا ينفعكم شيء لتنظيم اموركم مثل السلم في مشارق الارض ومغاربها . لذلك طرتم شوقاً الى مواطن القس ولستم عند ما بشر بالجمعية فهدتم سبيلها واسستم بنايتها عساها ان تريحكم بضع سنين تستجمعون فيها ما اضعتم من قوة وتنظمون ما قلقلتهُ لكم الحرب من

صناعة وتجارة . والفكرة نفسها تستهوي عامة الشعوب وتصادف هوى من نفوسها الساذجة ومن مثلكم قيّم باستغلال هذه الامور لنفعته ومن اقدر منكم ايها التجار الارض على تفهم نفسية الامم

الانكليزي — ان في ما تقولهُ شيئاً كثيراً من الحق ولكننا ونحن كما تصفنا تجار نسعى الى مكاسبنا فما ضرّ العالم اذا اتفقت مصلحته مع مصلحتنا

الفرنساوي — لا ضرر البتة . ولكنّ هذا العالم لا يدري متى تصطدم مصلحته مع مصلحتكم فتقيمون الارض وتقعدونها وتذهب الجهية هباء منثوراً

على ان دروسكم الماضية قد تلقنها الناس كثيرون الآن فاخذوا ينسجون فيها على منوالكم . فهل لك ان تخضع السنيور موسوليني او تحدّ من التوسع الاميركي او تضيق على النشاط الياباني . لا . دع العالم يسير سيرتهُ الحتمة. سيرة مدنية تغلب اخرى وحضارة تحل محل حضارة اخرى وهكذا الى ان يرث الله الارض ومن عليها

وخشيت السيدة الانكليزية ان يطول الحديث وهي لا يعنيها من كل الرحلة الاّ النظر الى الجبال تارةً والى الحقول الخضراء مرةً والى تصليح آلة التصوير لتحملها مرة اخرى فقالت لقد جعت فهيوا بنا الى مطعم تذوق شيئاً من طعام اهل سافوا العليا

فنزلوا ودخلوا مطعماً وكان الوقت قبل العشاء فلا تسل عما التهتهُ هذه السيدة من انواع الجبن الذي يكثر ويجود في تلك البلاد وما تناولتهُ مضغاً وبلعاً من اصناف الفاكهة

فكان صاحبنا المصري يحسدها على قوة معدتها ويعجب لها وهي لا تزيد على الذراع الاّ قليلاً كيف تستطيع ان تهضم ما تأكل وكان يتساءل قائلاً ترى هل يكون سرّ تفوق الانجلوسكسون في بطونهم . فالواحد منهم يأكل خمسة اضعاف اكل الرجل العادي والاكل يقوي الجسم والجسم السليم في العقل السليم. ثم يعود الى نفسهِ ويقول ولكنّ علم الصحة يوصي بالاقلال من الطعام منعاً للسموم ان تتوغل في الاجسام . ثم يقول . لا فالرياضة البدنية مطهرة لما يفسدهُ الاكل والقوم مولعون بها داثبون عليها حتى انك لتعدّ عليهم ساعات النهار والليل فترى ما ينفق على الاكل اكثر مما يصيب اي عمل آخر من اعمال الانسان . فادى به هذا الجدل الداخلي النفساني الى نتيجة مناقضة لما يقولهُ كبار الفلاسفة من ان الانسان يأكل ليعيش فان هذا الصنف الراقي من الآدميين يعيش ليأكل لا شك في ذلك ولا جدال

ودخلت السيارة المباركة بلدة أنسي وحادت بحيرتها تسير متئدة قاصدة الى قرية صغيرة على البحيرة لا تشمل من المنازل الا الفندق الذي نزلهُ الرفقاء الخمسة . واسمها « ماتون سان برنار » نسبة الى القديس برنارد . ومن هو هذا القديس ؟ انك ان نزعت عن اسماء المدن والقرى في فرنسا كلمة « قديس » مضافة الى الاسم لجردت فرنسا من ثلاثة أرباع اسمائها . بل انك اذا سرت في الحقول لا تقع عيناك الا على عمائل للسيد المسيح مصلوباً او للسيدة العذراء ضارعة تعاويذ يتقي بها الفلاحون ما يخشونهُ وانك لتمرُّ على القرى — وما اكثرها — فترى الكنيسة في اجمل بقعة من القرية وارفعها

وهذا في بلاد يصفون سكانها بالكفر بالاديان

فان انت حكمت على الناس بما ترى من هذه الظواهر قلت انهم لا يزالون ابناء ابنة الكنيسة الكبرى وان انت حكمت على ما تقرأ في رواياتهم البارزية وما تطلعهُ من قرارات برلمانهم وحكوماتهم التي قضت على الكنيسة وفصلتها عن الحكومة قلت انهم قوم ملحدون فاي القولين اصدق ؟ وهل يمكن لهؤلاء السكان المبعثرين في هذه القرى ان يوحوا بانتخاباتهم الى نوابهم ما يقررهُ هؤلاء النواب ام هو عمل النواب يفرضونهُ على هؤلاء السكان ؟ ام هي الشعوب كالانعام اذا اضاعت حاكماً معبوداً ضاقت بها السبل حتى تجدهُ فان لم تجدهُ خلقتهُ من حديد ومن حجر ؟ ام ترى يقود الزعماء هذا القطيع من الغنم تارة سائرين امامهُ ملوحين لهُ بغصن من الزيتون فيتبعهم مطمئناً . وأولئك هم الرسل والانبياء . وتارة واقفين من ورائهم يسوقونهم بالزجر وبالعصا وأولئك هم القواد والسياسيون

هذه هي عقدة المسائل ومن أُوتي الاجابة عنها بحق وصدق فقد أُوتي الحكمة

بقي للقارئ الحق بان يعرف من هو القديس برنارد حامي حمى هذه القرية وفندقها قالوا انهُ عاش منذ نيف وثلاثة قرون من عائلة شريفة في تلك الناحية . وحدثتهُ نفسهُ في الترهُّب فعارضهُ اهلهُ ورغبوا اليهِ ان يتزوج ظناً منهم ان الامر يلهيهِ عن ملكوت السموات . والحوا وضيقوا الخناق . فاكان منهُ الا ان رمى نفسهُ من شباك في اعلى القصر فذهب ضحية العزوبة والرهبنة ودعي قديساً . ولعلهُ وهذه هي حكايتهُ اولى من كثير من القديسين بهذا اللقب

سامي الجريديني